ASJP Algerian Scientific Journal Platform
مجلة دفاتر مخبر الشعرية الجزائرية
ISSN : 1112-9727 EISSN : 2676-1661
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/459

المجلد : 07، العدد : 01 (2022) ص : 42 – 52

النص والتواصل الإنساني

Text and human communication

خليفة عوشاش

جامعة المسيلة – الجزائر –

khelifa.aouchache@univ-msila.dz

معلومات المقال

تاريخ الإرسال:
2021 / 10 / 30
تاريخ القبول:
2021 / 11 / 09

الكلمات المفتاحية:
- ✓ التواصل الانساني
- ✓ النص
- ✓ اللغة
- ✓ السياق الاجتماعي

الملخص:

تعالج هذه الدراسة النص باعتباره الشكل الأساسي الذي تتجلى فيه اللغة الإنسانية بوصف اللغة شكلا من أشكال النشاط الإنساني، فحين يتواصل الناس من خلال اللغة فهم في ذلك يقومون بفعل اجتماعي وهم دائما يتواصلون بينهم ويصوغون معرفتهم وتصوراتهم للعالم في الصيغة اللغوية المكتفية بذاتها دلاليا والتي اصطلح عليها باسم النص، مما يؤكد أن الواقع اللغوي لا يكون متاحا بشكل مباشر إلا من خلال نصوص، وتخلص هذه الدراسة بعد عرض مجموعة من الحجج إلى أن النص حقيقة اجتماعية جوهرية، وضرورة من الضرورات التي لا غنى عنها في التنظيم الاجتماعي، وأن هذا الأمر ينسحب على السلوك اللغوي التواصلي في المجالات المختلفة، وتظهر انفراد لسانيات بهذا الموضوع رغم تداخله مع حقول معرفية أخرى ، وتكشف علاقة النص بالإدراك الاجتماعي، وأسباب التحول من وحدة الجملة إلى وحدة انطلاقا من رصد الدلالة التواصلية التي تجعل النص علامة اجتماعية أصلية.

Article info

Received
30/10/2021
Accepted
09/11/2021

Keywords:
- ✓ *Human communication*
- ✓ *Text*
- ✓ *Language*
- ✓ *Social context*

Abstract :

This study addresses the text as the basic form in which human language is manifested and language as a form of human activity. When people communicate through language, they do social action and they always communicate and formulate their knowledge and world perceptions in the Language formulation, which is termed the text, this linguistic reality is only available through texts, and this study concludes after presenting a set of arguments that the text is a fundamental social reality, and an indispensable social necessity, This is related to the linguistic behavior of communication in different areas, and shows the Domination of linguistics on this subject despite its overlap with other fields of knowledge, and reveals the relationship of the text to social perception, and the reasons for the transformation from the unit of the sentence to the unit based on the monitoring of the communication significance that makes the text an original social sign.

1. مقدمة

ظاهرة التواصل الإنساني من الظواهر التي انتبه إليها العلماء منذ القدم انتباها منقطع النظير، وما الكم الهائل من الكتب والدراسات التي أنتجتها الحضارات المختلفة عبر العصور إلا دليل على ذلك، ويعود السبب الأساس في هذا الانتباه المبكر إلى الارتباط الوثيق للتواصل بالمناشط المختلفة لحياة الإنسان، وقد تبين أن الحاجة قد ازدادت في العصر الحديث إلى دراسات تتناوله تطبيقيا ونظريا في إطار التخصصات العلمية الحديثة كعلم النفس وعلم الاجتماع واللسانيات وغيرها من العلوم التي تتقاسم هذا المجال المعرفي، سواء في علاقته باللغة المكتوبة والمنطوقة أم في علاقته بما هو غير لغوي من إشارات وحركات تفرضها ثقافة المجموعات اللغوية، سعيا وراء تحديد الوسائل والملامح والنماذج المختلفة للتواصل والأساسي منها والثانوي في الاستعمال الاجتماعي.

وقد استقر البحث الحديث في أن التواصل باللغة هو أهم ظواهر التواصل بين البشر، وأن اللغة هي الوسيلة الأكثر انتشارا بينهم، كما بين البحث والاستقصاء أن التواصل يكون بها أكثر سهولة وفعالية من غيرها من الظواهر، وأن الواقع الخارجي يتاح للإنسان باللغة أكثر من غيرها من الوسائل، بعبارة أدق هي التي تمكنه من النفاذ إلى الواقع واستيعابه، لأنها هي التي تقوم بصياغة الواقع في ذهنه، كما أن ملمح الاتفاق بين البشر في التفريق بين المتجمعات البشرية في سماتها المائزة انطلاقا من لغاتها شاهد على خطورتها وأهميتها البالغة.

انطلاقا من أن اللغة هي الصيغة الاجتماعية للمعرفة ووعاءها الأهم، والوسيلة الأساسية للتواصل الإنساني احتفت أغلب الدراسات اللسانية بدراستها في كافة جوانبها النحوية والتركيبية والصرفية والدلالية والتداولية والأسلوبية والوظائفية(علوي، 2012، صفحة 19) وبكيفيات اشتغالها وأداء وظائفها في التواصل الإنساني سعيا وراء اكتشاف البنى التي تشتغل بها في التواصل، والنماذج والوحدات الكبرى التي تستعملها على الدوام في هذا الشأن ، وقد أنتجت عددا مهولا من الدراسات في هذا المجال،لكن أغلب الدراسات ظلت متعلقة بالحدود الصوتية والصرفية والنحوية للجملة زمنا طويلا، حتى شكلت تلك الظاهرة تقليدا راسخا انتهى بالباحثين إلى اعتبار الجملة الوحدة الكبرى التي تقاس بها اللغة وأن لا وحدة أكبر منها قابلة للتحليل اللساني، رغم أن الممارسات اللغوية الدالة تتجاوز حدودها في واقع الاستعمال، وفي الممارسات التأويلية للنصوص المكتوبة والمنطوقة، الواقعية والتخييلية.

ولم ينتبه إلى تأسيس إمكانية وجود بنية أكبر تكون أكثر كفاية لاستيعاب التواصل اللغوي إلا في العصر الحديث، وبعد عقود من ظهور اللسانيات الحديثة وتكاثر مدارسها وتعدد زوايا نظرها إلى اللغة، لهذ اكان اكتشاف النص الذي يحي به الإنسان، اكتشافا جديرا بالاحتفاء إنه النموذج المقنع للتواصل، والمجال الوحيد الذي تكتمل فيه الدلالة، وتستقر فيه أنساق المعرفة والثقافة، والذي عمل الإنسان منذ وجوده اللغوي على رعاية اتساقه وانسجامه سعيا إلى اكتماله وتخليده وتوريثه من خلال تعليمه للأجيال المختلفة.

وقد جاءت هذه الدراسة لتسلط الضوء على التصور الإنساني والاجتماعي للنص بوصفه الشكل الأساسي للتنظيم الذي تجلى فيه اللغة الإنسانية، وتبين ملامحه المشتركة وعلاقته بالعرفان والتداول.

2. النص قالب اجتماعي

1.2. مفهوم النص

لا يقصد من مفهوم النص هنا محاولة إعطاء تعريف جامع مانع له فقد باءت المحاولات العديدة والجادة والمكثفة التي أنجزت خلال عقود بالفشل في الوصول إلى ذلك، ليس بسبب عجز الباحثين أو سوء تحديد أهدافهم أو تنظيم أنشطتهم البحثية بل يعود إلى الطبيعة التركيبية الشكلية المعقدة للغة الإنسانية وتمظهراتها الجزئية المتعددة والموهمة؛ الفونيمية والمورفيمية والجملية والنصية، يضاف إليها ارتباط اللغة بجميع سلوكات الإنسان فهي ليست مطلقا أداة من الأدوات أو وسيلة من الوسائل التي يمكن التخلص منها حال الانتهاء من مهمة من المهمات، فالكائن البشري يتصرف من خلالها في جميع سلوكاته فهي في الحقيقة تتخذ من الإنسان بيتا كما يتخذها بيتا دائما له، بل الهدف هو ربط المفاهيم بالطابع الإنساني الاجتماعي وتبيين علاقة النص الشكل الأساسي للغة بالصياغة والسلوك الاجتماعيين، لأن النص ليس ترفا مناسباتيا أو افتعالا أكاديميا، بل نموذجا عرفانيا اجتماعيا لجأ إليه المجتمع لتنظيم سلوكاته المعرفية والتواصلية المكتفية دلاليا.

ولا شك أن الالتفات الأول إلى تعريف النص كظاهرة كان من منظور الكتابة لأنها هي التي حولته من مظهريه العرفاني والصوتي إلى مظهره الثالث ألا وهو المظهر المرئي فجعلته قابلا للملاحظة بحاسة العين ثم بحاسة اللمسفظهور مصطلح النص مرتبط في رأي الأزهر الزناد «بظهور عدد من المؤسسات في المجتمع البشري وتطورها؛ أولها ظهور الكتابة من حيث هي وسيلة لتجاوز ضعف الذاكرة وفعل الزمن، فيتخذ الملفوظ حيزا في الفضاء ويستقل بوجوده فيخترق العصور» (الزناد، 1993، صفحة 12).ويقول بول ريكور «لنسمّ نصا كل خطاب تثبته الكتابة، وعلى هذا التعريف، يكون التثبيت بالكتابة مؤسسا للنص».(ريكور، 2001، صفحة 105)

فمن منطلق الكتابة جاء الاشتغال في مختلف التخصصات العلمية بتعريف النص كظاهرة تشغل حيزا يمكن الاعتراف به، ولم تسلم من ذلك حتى الهرمينوطيقا بوصفها الحقل المشتغل على دلالة النصوص، كما لم تتمكن الدراسات اللسانية في الحضارات المختلفة من الإشارة إلى إمكانية وجوده العرفاني بعد تعيينه من خلال الكتابة، أو ربط نموذجه بالسلوك الاجتماعي إلا في نقاط ملمحية لا تكاد تشكل تصورا مقنعا.

ثم أن العديد من العلوم والتخصصات التي تتقاسم الاشتغال على ظاهرة النص قد حاولت تعريفها من خلال الملامح التي تفرضها زوايا نظر هذه التخصصات، لكن التصورات والمفاهيم التي صاغتها قاصرة عن إعطاء تعريف يجمع أهم الملامح التي يشتغل بها، لذا فكثيرا ما توصف تلك التعريفات بأنها غير مرضية، ومن بين جملة تلك التعريفات السطحية تعريفات مناهج النقد النصية والسياقية، ولم يبدأ الاشتغال التجريبي الدقيق على تعريف النص إلا مع ظهور لسانيات النص ؛ الحقل الذي انفرد بالموضوع في وقت متأخر (واورزنياك، 2003، صفحة 36) ولاسيما في النصف الثاني من القرن العشرين ومع ظهور هذا الحقل العلمي بدأ التغيير في صياغة المفاهيم حول هذه الظاهرة.

فقد عرفه هارتمان Hartman بأنه: «متوالية من الكلمات المنطوقة فعلا في اللغة، فالنصوص قد تكون نسخا منقولة أو مادة مسجلة، أو أن تكون نتيجة تدوين عمل أدبي، أو قطعة من معلومات – نصر سالة مثلا» (Hartman و stork، 1972، صفحة 238).

وهذا التعريف القصير والمبكر من تاريخ لسانيات النص يربط انتاج اللغة بالاستعمال الفعلي للغة في المواقف والسياقات، لأنها بعبارة أوضح نتاج اجتماعي في موقف محدد.

كما أشار في العمل المشترك مع ستورك F. Cstork إلى أن النص هو موضوع التحليل اللساني أي الأساس الذي ينطلق منه التحليل، حتى لا ينطلق من وحدة أخرى مثل الجملة مثلا.(Hartman و stork، 1972، الصفحات 237-238)، ثم عرف النص على أنه امتداد متواصل من وحدات لغويّة أكبر من الجملة المنطوق منها خاصة، رابطا النص بالموقف الفعلي لنشاط النص.(Crystal ، 1991، صفحة 106) ولا يتعلق الأمر هنا بالتفريق في إطلاق مصطلحي النص والخطاب على ظاهرتين مختلفين تفرقان ظاهرتين متباينتين يتعلق أحدهما بالمكتوب في حين يتعلق الآخر بالمنطوق، بل يتعلق بإرجاع النص إلى طبيعته التداولية الأصلية(البقاعي، 1998، صفحة 44) ،

والتواصل بالمفهوم الضيق ليس وظيفة النص الفريدة والنهائية، وإنما يتسم النص بسمات وظيفية أخرى، وهذا ما جعل جون لاينز يعترض على التعريف التقليدي للنص بكونه سلسلة من الجمل المتتابعة وظيفتها التواصل، ويرى أن هذا التعريف غير مرض وعاجز عن توضيح الوحدات التي يتكون منها النص «وليست مجرد وحدات متصلة مع بعضها في سلسلة، إنما ينبغي ربطها بطريقة مناسبة من حيث السياق، وعلى النص في مجمله أن يتّسم بسمات التماسك والترابط» (لاينز، 1987، الصفحات 218-219).

والنصوص في رأي سوينسكيSwinsky إبداعات يستدعيها واقع معين أو وجهة نظر فعلية معينة، ويجب أن تدرك في إطار هذه الخاصية على أنها أبنية للمعنى، ومن هذا الأساس عني علم النص بوجه خاص بالعمليات المنتظمة لتشكيل النص، وبالعناصر المؤثرة، وبالوظائف والتأثيرات الاتصالية للنصوص، حيث النص انتاج فريد من نوعه وليس إعادة، لارتباطه بواقعة بعينه الا تتكرر.(بحيري ، علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، 1998، صفحة 105)

وبحسب هذا المفهوم لا يكون نصا إلا بوجود علاقات داخلية تنتظم فيها متواليات الجمل، وهذه العلاقات هي التماسك والترابط، وعلاقات خارجية يحكمها السياق وهذا شبيه برأي لاينز الذي يخلص إلى أن كلا من النص والسياق يتمم كل منهما الآخر، ويفترض مسبقا كل منهما الآخر، وتعد النصوص عنده «مكونات للسياقات التي تظهر فيها، أما السياقات فيتم تكوينها وتحويلها وتعديلها بشكل دائم بواسطة النصوص التي يستخدمها المتحدثون والكتاب في مواقف معينة»(لاينز، 1987، صفحة 215).

ويؤكد روبرت دي بوجراند في هذا الإطار على أهمية السياق كذلك، حيث يرى أنه ينبغي للنص أن يتصل بموقف يكون فيه حدوث موقف تواصلي Situation of Occurrence تتفاعل فيه مجموعة من المرتكزات والتوقعات والافتراضات والمعارف وهذه الفضاء الواسع الذي يحدث فيه النص يسمّى سياق الموقف Context of situation.

الوصف اللغوي للنص وصف معقد يتجاوز حدود ما هو قائم في اللغة والواقع اللغوي، إلى ما هو غير قائم في اللغة، الواقع الخارجي، بمعنى أن المادة الفعلية التي تقدمها تراكيب اللغة ليست كافية لتقديم تفسيرات دقيقة للنصوص.(بحيري ، علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، 1998، صفحة 106)

وإذا كان هاليداي وحسن رقية قد وسعا مفهوم النص ليشمل المنطوق والمكتوب فلا يقتصر تعريف النص عندهما بالمكتوب دون المنطوق، حيث في رأيهما تستعمل كلمة النص في اللسانيات للإشارة إلى أيّ مقطع، منطوق أو مكتوب، ومهما كان طوله، ليشكّل كلاّ

موحدا.(Hassan، 1976، صفحة 1) فإن دافيد كريستال وهاينه مان وفيهفيجر قد وسعوا مفهوم النص من كونه منطوقا ومكتوبا،إلى مجالات غير لغوية؛ فأدخلوا أصنافا أخرى تشمل علامات الطريق والمحادثات، والتقارير الإخباريّة والصور الرمزية، والقصائد والإعلانات وغيرها (Crystal ، 1991، صفحة 350).ويبرران إدخال هذه الأصناف تحت مفهوم النص اعتمادا على وظيفة النص الرئيسة؛ والمتمثلة في الوظيفة التواصلية للغة (Function Communicative) التي تعرف بسمات مثل الاتّساق (Cohesion)، والانسجام (Coherence)، والإخباريّ ة(Informativeness) وهذه السمات هي التي توفر تحديد الكيفيّة التي تنشئ وحدة النصية أو نسيج النص.(Crystal ، 1991، صفحة 350)

لقد تم تعريف النص في أدبيات لسانيات النص انطلاقا من وجهات نظر مختلفة؛ زوايا بنيوية وأخرى دلالية تداولية تأسيسا على أن النص هو القول اللغوي المكتفي بذاته، والمكتمل في دلالته(بحيري ، علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، 1998، صفحة 104)يكون فيه المعنى الكلي للنص أكبر من مجموع المعاني الجزئية للمتواليات الجملية التي تكونه، ولا تنجم الدلالة الكلية إلا بوصفه بنية كبرى شاملة تشتغل في سياق تواصلي. كما أن المعنى فيه يتشكل بحركة جدلية أو تفاعل مستمر بين أجزائه؛ ومن ثم ينظر إلى ذلك الانسجام الداخلي بين الدلالات الجزئية، وليس إلى ذلك الانتقال المعهود والمنظم من الجزء إلى الكل، أو من أول فونيم إلى آخر فونيم في النص.(بحيري ، علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، 1998، صفحة 75)

لكننا لابد أن نعترف أن مسألة وجود تعريف جامع مانع للنص مسألة غير من منطقية من جهة التصور اللغوي، لأن التعريف يظل محاولة للوصول إلى تجميع أكبر عدد من الملامح الفارقة للنص وهي محاولة طموحة للتدقيق في خواص هذا الموضوع الاجتماعي والإنساني(بحيري ، علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، 1998، صفحة 107)لأن النص من حيث الإنتاج تحكم تكوينه عدة عمليات لغوية ونفسية واجتماعية ومعرفية متحكمة، لتشكل من أجزاءه وحدة منسجمة قائمة على قواعد تركيبية ودلالية وتداولية.

2.2. النص والعرفان الاجتماعي

لا أحد يمكنه أن ينفي الأهمية الأساسية للنصوص في وجود أي مجتمع إنساني، إذ تؤسس بواسطتها العلاقات الاجتماعية خاصة انطلاقا لأنها المظهر الشكلي الأساسي للغة من عمليات الحوار والتواصل المختلفة. ومن هنا يجب أن ينظر إلى النصوص على أنها حقيقة اجتماعية جوهرية، كما يجب الالتفات إلى أن القدرة على استخدام مناسب لأنواع النصوص الأعلى شيوعا من الناحية الاستعمالية اجتماعيا شرطا لإمكان أن يكون كل عضو في مجتمع ما فاعلا من الناحية اللغوية الاتصالية.

لهذا فإن النصوص في حقيقتها العرفانية أشكال إدراك اجتماعي من الناحية اللغوية،والتصورية، الإدراك الحسي، وكذلك كل طرق الاستعمال الاتصالية لأشكال المعرفة الجمعية، كما يمكن التأكيد على أن النصوص بوصفها أشكالا اجتماعية للغة مصوغة سلفا لاختيار المعرفة، وجمعها وبنائها وصياغتها.(بحيري، علم لغة النص نحو آفاق جديدة، 2007، صفحة 51) كما أن المعرفة المركبة في حياتنا الفردية والجمعية معرفة قائمة على أساس نصي(جوليا، 1991، صفحة 12)، وليست النصوص فقط قوالب أوتحققات لغوية أو لسانية لتصورات أو عمليات إدراكية بل هي وسائل للتكوين المعرفي الفردي والاجتماعي(بحيري ، علم لغة النص نحو آفاق جديدة، 2007، الصفحات 49-50)، وعليه يمكن القول إنه بالنسبة لمجالات واسعة من معرفتنا الفردية أو الجمعية تعد النصوص شكل التكوين والتنظيم المركب لمعرفتنا الجمعية الأكثر توفيقا من الناحية الاجتماعية.(بحيري، علم لغة النص نحو آفاق جديدة، 2007،

صفحة 55)، وحين تفهم النصوص على أنها أشكال إدراك اجتماعي، فإن النصوص ستنزع إلى تشكيل عالم للمعرفة وثيق الصلة اجتماعيا ويمكن تشبيه النصوص اللغوية بالنظريات في الحقول العلمية المختلفة حين تنقل للناس عروضا إدراكية للنظام في العالم الواقعي(بحيري ، علم لغة النص نحو آفاق جديدة، 2007، صفحة 60) ؛ فالنصوص من هذه الزاوية لا تجعل المعرفة مرئية فحسب، بل توجدها بوجه عام من ناحية اجتماعية عرفانية. (بحيري، علم لغة النص نحو آفاق جديدة، 2007، صفحة 65)

ونظرا لأهمية النص العرفانية اجتماعيا فإن درجة التمكن المناسب من الوظائف الاتصالية من قبل أكبر عدد ممكن من أفراد المجتمع تؤثر في كيفية اشتغال العمليات الاتصالية في هذا المجتمع في كل مجالات الحياة ، وبذلك يكون لها تأثير أيضا بشكل غير مباشر في وضع العلاقات الاجتماعية في هذا المجتمع : فبالنصوص تتناسق النشاطات الإنسانية ، وبها تعد أحداث كثيرة وتنجز ، وبها توجه السلوكات الاجتماعية عند الآخرين نحو هدف محدد ، وهي إلى ذلك تكسب أفراد جماعة اتصال ما خبرات ومواقف وقيما .إنها بهذه الطريقة تمكن من تعميم مفهومي للواقع، وتجعل العمليات الذهنية مدركة وميسرة ومن ثم مفهومة للآخرين، وبهذا المعنى تصير النصوص أداة مهمة لدى البشر لامتلاك الواقع والسيطرة عليه، وعليه فهي تشكل الأساس الجوهري للتطور والتكامل لكل من البشر والمجتمع(بحيري، علم لغة النص نحو آفاق جديدة، 2007، الصفحات 10-11).

لم يكن التطور الحديث للمعرفة بتنوعاته ممكن الوجود دون وجود نصوص، فقد تطورت النصوص في أثناء التحول والارتقاء الثقافي بوصفها نتاجات فرعية مكتشفة للأفعال اللغوية الاتصالية إلى أشكال مؤسسة لغويا لتكوين معرفة مركبة وتنظيمها،لهذا ينصح بعدم تجاهل وظيفة اللغة/ النص، تكوين المعرفة، لأن هذه الأخيرة ممثلة لغويا دائما. ولعل وفي الانتباه إلى أهمية النص في الجانب التربوي الموجه إلى اكتساب اللغة في مرتبة الاستعمال المختلف للنصوص نطقا وكتابة، وإنشاء النصوص المرتبط بالمقصد الاتصالي المتجلي في علاقات تركيبية عليا، ملمحا على بداية إدراك لأهمية البناء العرفاني لنموذج التواصل.

يفهم من هذا الطرح كله أن اللغة ليست أداة للاتصال والتعبير فقط، بل نظرا لتشكيلها للجانب العرفاني المسيطر على سلوكات الإنسان اللفظية وغير اللفظية تصير شرط الوجود الإنساني هذا الوجود المرتبط بالتواصل الاجتماعي(زيبيله، 2011، صفحة 343)في كما يفهم منه أيضا أن التمكن من النص المظهر الجوهري يجعل الفرد يصير أحد أعضاء الجماعة اللغوية.

3. البنية الدلالية أساس وحدة التحليل

1.3. المعنى أساس التحول من الجملة إلى النص

لم تتمكن الدراسات اللسانية ولعصور طويلة من أن تتجاوز حدود الجملة في التحليل اللساني، تاركة تحليل النص للبلاغة والأسلوبية وهي حقول معرفية تشتغل في إطار موضوعات موسعة، وهذا ما أثرى التراث اللساني بحصيلة ضخمة أمدت الوصف التركيبي للنص بمفاهيم وأدوات لا يمكن وصفها إلا بأنها أدوات نظرية وتجريبية سهلت طريق اللسانيات المشتغلة على ظاهرة النص، وجعلتها تركز على موضوع جوهري في التواصل اللغوي، لتحول الاهتمامات البحثية إلى مستوى أعلى من الجملة، لتبحث « عن نماذج أشمل وطرق وصف مغايرة قادرة على استيعاب ذلك التحوّل وتقديم محاولات جديدة لتحقيق الكفاية الوصفيّة والتحليليّة» (بحيري ، علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، 1998، صفحة 140)للتواصل اللغوي، لأن الدراسات اللسانية التقليدية والتي امتدت إلى منتصف القرن العشرين قد

حددت أفق التحليل اللساني بالجملة وصرحت في مواقع متعددة بأنها وحدة التحليل الكبرى التي لا وحدة أو نموذج بعدها (برينكر،كلاوس، 2010، صفحة 28)، ولا شك أن الانصياع وراء هذه الفكرة والإصرار على صحتها قد عطل مجال البحث النصي عن تطوير موضوعاته البحثية من خلال التشكيك في جدواه، لكن الحقائق الجوهرية التي اكتشفتها الأبحاث الطموحة حول التواصل اللغوي الاجتماعي تمكنت من فتح الطريق أمام التحول من نموذج الجملة إلى نموذج النص.

ولعل من أبرز دواعي التحول من نحو الجملة إلى نحو النص؛ أن البحث اللساني لا يقر للجملة بالاستقلال من الناحية الدلالية، مما يجعل لسانيات الجملة غير كافية لوصف تتابعات كبرى تتجاوز الجملة، أو الظواهر المتعلقة ببنية النص ككل، فالجملة ذات دلالات جزئية ولا يمكن انتاجها تواصليا إلا ضمن النص، ولا يمكن أن تقرر الدلالة الحقيقيّة للجملة الواحدة داخل النص، إلا بمراعاة الدلالات السابقة واللاحقة في التوالي النصي، «إذ ينظر إلى النص مهما صغر حجمه على أنه وحدة كلية مترابطة الأجزاء، أو بنية معقدة متشابكة مكتفية بذاتها دلاليا، يتحقق التماسك بين عناصرها المضمونية والائتلاف، أو الترابط بين عناصرها الشكلية »(بحيري ، علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، 1998، صفحة 141)، كما أن البنية الدلالية المكتفية بذاتها في النص ليست مجرد جمع بسيط لدلالات الجمل التي تشكل موضوع النص، بل يجب التأكيد على أن المعنى الكلي للنص أكبر من مجموع المعاني الجزئية للمتواليات الجملية التي تكوّنه، ولا تنجم الدلالة الكلية عنه إلا بوصفه بنية كبرى، فالنص ينتج معناه عن تفاعل مستمر بين أجزائه، ومن ثم ينظر إلى ذلك الانسجام الداخلي بين الدلالات الجزئيةّ، وليس إلى ذلك الانتقال المعهود والمنظّم من الجزء إلى الكل.(دي بوجراند، 1998، صفحة 141)

وفي هذا الإطار الذي يسوغ التحول من الجملة إلى النص من خلال رصد الفروقات بين الوحدتين التحليليتين يضع دي بوجراند مجموعة أساسية منها، مقدما لها بوجهات نظر لسانية اعتمدت بناء الجملة، إذ يرى دي بوجراند أنه على الرغم من اعتماد الدراسات اللسانية ولعصور سحيقة على الجملة، إلا أن هذ الوحدة قد أحيط بها الغموض في المفهوم ولهذا تعددت تعريفاتها، ويعلق على عدد من العبارت التعريفية لمجموعة من اللسانيين المعاصرين بملامح ومعايير وحدة الجملة بقوله: «إن اللمحات التضمينية الوظيفية لكل هذه المعايير تختلف اختلافا تاما فيما بينها، وإن البحث العلمي ليوضح أن الناس يختلفون في أحكامهم بالنسبة لما تتكون منه الجملة»(دي بوجراند، 1998، صفحة 88). ويشير إلى أننا حين ننظر إلى سكتات اكتمال الدلالة التي نجدها في الكلام نجد أن كثيرا منها ليست معايير ثابتة لتعيين حدود الجملة، بسبب أن تعيين حدود الوقائع النطقية يجري عن طريق علامات غير لغوية. كما يشير إلى أن النحو التحويلي الذي شكل ثورة لسانية قد عرف اللغة بأنها مجموعة من الجمل، وكل ما لا يوجد في الجملة لابد أن يقدر بالاستنباط والتحويل.فالجملة في اللسانيات التحويلية لميتم وصفها نحويا، بل وصف توفق تصورات المنطق، وهذا يتنافى مع وصف اللغات الطبيعية، والمكونات التي من قبيل الموضوع والمحمول يتم إيرادها من وجهة نظر المنطق، أما المكونات التي من قبيل المركب الاسمي والمركب الفعلي فهي مكونات قواعدية خالصة (دي بوجراند، 1998، الصفحات 88-89). وهذا عجز اللسانيات الجملية على التوصيف لعدم وضوح الدلالة الناتج عن عدم اكتمال وحدة الجملة.

ليخلص إلى التصريح أن«الكيان اللغوي المتعدد المستويات لابد أن يكون هو النص المشتمل على أجزاء، يمكن لها أو لا يمكن أن تركب في صورة جمل»(دي بوجراند، 1998، صفحة 78). كما أثار مجموعة من الفروقات التي تتصل بالفعالية التواصلية، وتوفر المعايير النصية والتي يراها جوهرية منها:أن النص نظام فعال أو مفعل من اللغة في التواصل الاجتماعي، على عكس الجمل التي أجزاء من نظام افتراضي هو اللغة، ويوضح المقصود بالنظام الفعال، أن النص تجمع من الوظائف يوجد عن طريق عمليات قوامها الحكم والانتقاء اللذان يكونان بين عناصر النظام الافتراضي لهذا يمكن لإنشاء النص أن يوصف بأنه تفعيل في موقف. وهذه السمة هي المعيار الجوهري للتعرف على النص بهذا الوصف، ويتبع ذلك أن النص ليس مجرد منزلة مختلفة عن منازل الجملة، بل لأنه مرتبط بالدلالة قد يكون أكثر من كلمة واحدة، وقد يتألف من عناصر ليس لها ما للجملة من الشروط: مثل: علامات الطريق، والإعلانات، والبرقيات. وغيرها (دي بوجراند، 1998، الصفحات 89-97).

ومن الفروقات المرتبطة بالدلالة أن الوصف الدقيق للجملة على أنها كيان قواعدي خالص يتحدد وفقط على مستوى النحو، أما النص فيتحدد بناء على الدلالة في التواصل الاجتماعي تبعا لمعايير النصية، كالاتّساق، والانسجام، والقصد، ورعاية الموقف، والتناص، والإعلامية.يضاف إلى ذلك أن القيود النحوية المفروضة على بنية الجملة المنفردة لتشكيل الدلالة يمكن أن يتم التخليعنهافي الجملة المتضمنة في النص بالاعتماد على سياق الموقف، فالعناصر التي يمكن فهمها من الموقف مثلا عن طريق الإدراك الحسي يمكن السكوت عنها أو اقتضابها بوساطة المتكلم من دون الضرر بالطاقة الاتصالية للنص، فلا يكون الصواب النحوي قانونا نهائيا فريدا، بل يعد معيارا يلجأ إليه عند عدم وجود قرائن محددة.

ومن الفروقات القائمة على الدلالة مقارنة الأنماط فمقارنة الأنماط السليمة شكلية صرف؛ فالحكم بأن تركيبا ما يعد جملة يتم بمقارنة هذا التركيب بالأنماط التي تسمح بها القواعد النحوية.أما السلامة في نمط النص أي بين ما يعد نصا وما لا يعد نصا فلا يمكن أن يتم إلا في إطار التواصل الاجتماعي وتصور البنية الكلية للدلالة التي يأخذ فيها الجانب الشكلي حيزا ضئيلا في الحكم.

2.3. من النص إلى التداول

ينبغي للنص أن يتصل بموقف تتفاعل فيه مجموعة من المرتكزات والتوقعات والمعارف تسمى سياق الموقف، ولايمكن للنص أبدا أن فارغا من المعنى أو بغير أثر عملي في الأداء، فالقواعد التجريدية لتكوين للنص لا يمكن التقنين لطوله ولا يمكن النظر إلى النص على أنه مجرد صورة مكونة من الوحدات الصرفية أو الرموز اللغوية. إذ إن النص تجل لعمل إنسانيينوي به شخص ما أن ينتج نصا، ويوجه السامعين به إلى أن ينوا عليه علاقات من أنواع معينة. لذا يبدو هذا التوجيه مسببا لأعمال محددة، فالنصوص تراقب المواقف وتوجهها وتغيرها، لذا فهي ذات أثر في المواقف الإنسانية، لأنها تستعمل لتعريف الناس كيفية بناء العلاقات الإنسانية.

فالنص بهذا متوالية من الحالات؛ كالحالة المعلومية، والحالة الانفعالية، والحالة الاجتماعية. وهذه الحالات لها ما يقابلها لدى مستعملي النص، ويجعلها للنص عرضة للتغير. وأن إنتاج النص وفهمه يأتي في صورة توال من الوقائع(بوسه، 2012، صفحة 152). ففي كل نقطة من نقاط هذا التوالي تطبق الضوابط السائدة، فضوابط بدايات النصوص تختلف عن ضوابط استمرارها ونهاياتها. وليس نظاما يرى في حالة واحدة مثالية مفارقة للتطور.

فالوعي التداولي والاجتماعي واضح في النصوص كما أن العوامل النفسية أوثق علاقة بها. إضافة إلى أنها تتضمن وتشير إلى نصوص متاخمة في الإطار التداولي ما يعرف بالتناص، لأن الناس بحاجة إلى معرفة عملية الأحداث الماضية والجارية بخصوصها، وتنطبق هذه الحالة من التناص على الملخّصات ومسودات الموضوعات، والاستطرادات، والإجابات، ومحاكاة النصوص(زيبيله، 2011، صفحة 2018).

من الناحية التداولية يتعامل الناس يوميا مع النصوص في صيغة مكتوبة، بوصفهم متلقين يقرؤون الجرائد والمجلات والروايات والكتب والرسائل الكترونية والبلاغات والأحكام القضائية ومنتجين لها أحيانا بل، وتشترك كل النصوص اللغوية المكتوبة في مجموعة من الخصوصيات في الشروط السياقية لعملية التواصل، كعدم تساوق شركاء التواصل، كما أن عمليات إنتاج النص واستقباله لم تعد تجري استنادا إلى التفاعل أو التساوق مباشرة، بل تجري استنادا إلى التعاقب، فالمرسل والمرسل إليه ينجزان نشاطاتهما الاتصالية في سياقات جزئية مختلفة، أما السياق الشامل فلم يعد يظهر إلا من خلال النص في حالة إعادة انتاج.

تجدر الإشارة إلى أن أغلب نماذج وصف النص التي نشأت منذ السبعينات قد ركزت على تحديد كيفية عمل النصوص في سياقات الحياة الفعلية، لهذا توجد صياغات تعتمد في توصيفها للنص على عوامل غير لغوية،أي ما هو تداولي،وأدت النظرة العميقة التي تعزو للنصوص وظيفة أداتيه في إطار أوجه نشاط كلية إلى وضع نماذج اكتسب البحث اللساني النصي من خلالها بعدا جديدا: فلم تعد اللغة بوصفها نظاما مستقلا بكل أنظمتها الجزئية وسياقات استخدامها أساس تحليلات النص، بل صار الأساس كيفية عمل اللغة في قضايا الاتصال في مجتمع معين، فالنصوص لم تعد مركبات رموز منعزلة، بل توصف النصوص داخل وظيفة تواصلية فعلية(فيهفيجر و فولفجانج، 1419، صفحة 52).

وانطلاقا من الوظائف التداولية للنص يحدد ايزنبرج الملامح التالية كخواص جوهرية لكليات النص، أو الأسس الموجهة لتكوين النصوص:

1- الشرعية الاجتماعية للنصوص بوصفها تجليات لفعل اجتماعي؛

2- الوظيفة الاتصالية النصوص بوصفها وحدات ينتظم فيها الاتصال اللغوي

3- الدلالية

4- الارتباط بموقف

5- المقصدية

6- جودة السبك

7- كمال التأليف(فيهفيجر و فولفجانج، 1419، صفحة 52)

فلم يعد يشكل النص نفسه وبناؤه اللغوي أو الدلالي الآن نقطة انطلاق أوجه الوصف اللغوي النصي، بل أوجه النشاط الفعلية – الاتصالية المؤسسة للنص هي أساس الانطلاق، حيث لا يتوضح هذا بداهة إلا سياقات اجتماعية ومجتمعية شاملة، ومن هنا لم يعد يعني بالنصوص على أنها ليست إلا نتاجات جاهزة تحلل تحليلا نحويا أو دلاليا، بل إنها صارت تبحث بوصفها عناصر أفعال شاملة، بوصفها أدوات لتحقيق مقاصد اتصالية واجتماعية معينة للمتكلمين.(فيهفيجر و فولفجانج، 1419، صفحة 53).

إلا أن الدراسات التجريبية التداولية الجارية الحقل العلمي للنص تسعى إلى رصد الملامح الفعلية للمعنى النصي في التداول من خلال

الأنماط المختلفة للنصوص المنطوقة، لما لها من حركية وعفوية الانشاء وارتباط التداوليات بحقل العرفانية الذي ساد الدراسات اللسانية الحديثة، وأصبحت الدراسات النصية التي تتناول النص المكتوب أكثر تراجعا عن اهتمامات الباحثين بسبب فقدان هذا الصنف من النصوص للواقعية الاجتماعية، إلا مات علق بالتواصل الافتراضي الذي انتشر في السنوات الأخيرة.

4. خاتمة

يبدو أن الأهمية الاجتماعية للنص، تزداد وضوحا باكتشاف النص وتسليط الضوء على أبنيته التي يستعملها الإنسان في التواصل وهذه عدت تلك الأبنية ثوابت من حيث وجودها فلا يمكن للمعرفة أن تتشكل في إطار اجتماعي إنساني إلا من خلاله وهي تختلف عن أشكال الفهم لأن الفهم من المتغيرات. فقالب النص أو بنيته ذات طابع اجتماعي كلما تمكن شركاء التواصل من تنفيذه بطريقة سليمة كلما كانوا أكثر نجاحا من الناحية الاجتماعية.

وقد أشارت الدراسة إلى ارتباط اكتشاف النص بالجانب المرئي من خلال الكتابة فالإنسان ظل يمارس النص من خلال حسه الاجتماعي ولكن الكتابة أعطت النص فرصة الظهور والاستقرار في حيز يمكن ملاحظته ملاحظة مباشرة، واختلف الباحثون في تعريفه لكن الدراسات قد وجهته وجهة اجتماعية في معظم الدراسات المتأخرة، لتعيد للغة دورها في العلاقات الاجتماعية، وتكشف أن اللغة تتمظهر وهي تؤدي وظيفتها في وحدة أو نموذج فريد ووحيد هو النص، أما التمظهرات الأخرى الفونيمية والمورفيمية والجملية فإنها غير مكتفية بذاتها.

وقد كان للدلالة الاجتماعية الدور الأساسي في توجيه البحث النصي حيث وضعته في طريقه السليم، وأخرجته بعد قرون من الضياع في أبحاث الجملة والأوهام الدلالية المرتبطة بها، فكان الدلالة الاجتماعية والسياقية سببا وجيها في التحول الذي عرفته الدراسات اللسانية والنصية في العصر الحديث.

مما أفضى بالبحث إلى توصيف عودة البحث اللساني إلى مجاله المنوط به، وإلى توجيه تفسير النص انطلاقا إلى واقعته الفعلية والتداولية التي نبت فيها ونشأ في أحضانها، ليخلص إلى أن النص نموذج عرفاني إنساني اجتماعي يشكل مؤسسة لا يمكن بحال تجاوزها، أو الاستهانة بشروطها فهي التي تتحكم في السلوكات الثقافية للمجتمع ككل.

قائمة المراجع

1- Halliday (M.A.K.) and Ruqaya Hassan .(1976) .Cohesion in English.New York: Long man.

2- David Crystal .(1991) . A Dictionary of Linguistics and phonetics .(3) London: Black well published.

3- R.R. K Hartman, & F. C. stork .(1972) .Dictionary of Language and linguistics. London: Applied Science published.

4- الأزهر الزناد. (1993). نسيج النصّ، بحث في ما يكون به الملفوظ نصّا (المجلد 1). بيروت: المركز الثقافيّ العربيّ.

5- احمد اسماعيل علوي. (2012). التواصل الانساني دراسة لسانية (المجلد 1). المغرب: كنوز المعرفة.

6- برينكر،كلاوس. (2010). التحليل اللغوي للنص مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمناهج (المجلد 2). القاهرة: مؤسسة المختار للنشر والتوزيع.

7- بول ريكور. (2001). من النصّ إلى الفعل (المجلد 1). (محمد برادة، و حسن بورقية، المترجمون) القاهرة: مؤسسة عين للدراسات والبحوث الإنسانيّة والاجتماعيّة.

8- جون لاينز. (1987). اللغة والمعنى والسياق (المجلد 1). (عباس صادق الوهاب، المترجمون) بغداد: دار الشؤون الثقافيّة.

9- ديتر فيهفيجر، و هاينة من، فولفجانج. (1419). مدخل إلى علم اللغة النصي (المجلد 1). (فالح بن شبيب العجمي، المترجمون) السعودية: مطابع جامعة الملك سعود.

10- ديتريش بوسه. (2012). تفسير النص أسس نظرية لغوية لعلم دلالة تفسيري (المجلد 1). (بحيري سعيد حسن، المترجمون) القاهرة: زهراء الشرق.

11- روبرت دي بوجراند. (1998). النص والخطاب والإجراء (المجلد 1). القاهرة: عالم الكتب.

12- زتسيسلاف واورزنياك. (2003). مدخل إلى علم النص مشكلات بناء النص (المجلد 1). (سعيد حسن بحيري، المترجمون) مصر: مؤسسة المختار للنشر والتوزيع.

13- سعيد حسن بحيري . (1998). علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات (المجلد 1). القاهرة: الشركة العالمية للنشر لونجمان.

14- سعيد حسن بحيري . (2007). علم لغة النص نحو آفاق جديدة (المجلد 1). القاهرة: زهراء الشرق.

15- كريستيفا جوليا. (1991). علم النص (المجلد 2). (الزاهي فريد، المترجمون) المغرب: دار توبقال للنشر.

16- كريم زبيله. (2011). اللغة والفعل الكلامي والاتصال مواقف خاصة بالنظرية اللغوية في القرن العشرين (المجلد 1). (حسن سعيد بحيري ، المترجمون) القاهرة: زهراء الشرق.

17- محمد خير البقاعي. (1998). آفاق التناصّيّة، المفهوم والمنظور (المجلد دط). (محمد خير البقاعي، المترجمون) القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.